



Abdelkader Ben Farah

► To cite this version:

| Abdelkader Ben Farah. : "" . L'Atlas tunisien, Nov 2008, Sousse, Tunisia. <halshs-00593353>

HAL Id: halshs-00593353

<https://shs.hal.science/halshs-00593353>

Submitted on 14 May 2011

HAL is a multi-disciplinary open access archive for the deposit and dissemination of scientific research documents, whether they are published or not. The documents may come from teaching and research institutions in France or abroad, or from public or private research centers.

L'archive ouverte pluridisciplinaire HAL, est destinée au dépôt et à la diffusion de documents scientifiques de niveau recherche, publiés ou non, émanant des établissements d'enseignement et de recherche français ou étrangers, des laboratoires publics ou privés.

الازدواج الصوتي¹ في الدّارجة التونسيّة

ظاهرة "التّششّة" نموذجاً²

عبد القادر بن فرح³

مقدّمة البحث:

يُنزّل هذا البحث في إطار الأهداف الكبرى التي رُسمت لإنجاز الأطلس اللساني التونسي، وذلك بمحاولة تجميع المادة المتعلقة بظاهرة لهجيّة ما تنتمي إلى اللسان التونسي، ووصفها، ثمّ تصنيفها ضمن خرائط تهدف إلى إبراز الخصائص اللسانية جغرافياً في التقائها وافتراقها، وفي تماثلها واختلافها⁴.

وفي إطار السّعي إلى تحديد معالم نظام الصّواتم Consonnes في الدّارجة التونسيّة، سنحاول البحث في قضية صوتيّة تتعلّق بما يصطلح علماء اللغة والصّوتيات على تسميته بـ "الازدواج الصوتي" أو الأصوات المزدوجة Consonnes Affriquées، وهي ظاهرة صوتيّة منتشرة في ألسن كثيرة إن لم نقل في كلّها، وهي تمثّل إضافة إلى غيرها من الظواهر اللغويّة الحادثة مظهراً من المظاهر التي بها يكون لسان ما حيّاً. والظاهرة التي نسعى في هذا البحث إلى الاشتغال عليها هي ما نصطلح على تسميته بظاهرة "التّششّة"⁵ التي سنحاول تحديد معالم نظامها وتبيّن مدى اتّصاله بنظام الفصحى أو انفصاله عنه. وإضافة إلى ذلك سنحاول تبيّن مدى وحدة هذا النّظام ومدى استقراره⁶. وسنحاول تقسيم عملنا إلى قسمين:

¹ فضلنا ترجمة المصطلح الفرنسي: les consonnes affriquées بالأصوات المزدوجة عوض الترجمة السائدة: الحروف المزدوجة، لأنّ موضوع بحثنا يتعلّق بحرف/صورة واحدة (يُنطق مزدوجاً). وبذلك فإنّ الازدواج حاضر في مستوى النّطق/الصّوت وليس في مستوى الكتابة/صورة الحرف. وقد فرّق ابن سينا بين الصّوت والحرف في رسالته: "أسباب حدوث الحروف" بقوله: "أمّا نفس التّموّج فأبّه يفعل الصّوت. وأمّا حال التّموّج من جهة الهيّات التي تستفيد منها من الخارج والمحابس في مسلكه فتفعل الحروف" (ص 17).

² هذا البحث قدّم في إطار الأعمال العلميّة المنعقدة بكلّيّة الآداب سوسة في إطار إثناء الأطلس التونسيّ التي أشرف عليها الأستاذ الطيّب البكوش. 2008.

³ المعهد العالي للغات التطبيقية والإعلاميّة بنابل.

⁴ انظر في هذا الإطار البكوش والماجري 2000: 293.

⁵ هذه الظاهرة الصّوتيّة ظاهرة حديثة ولم يتعرّض إليها اللغويّون العرب القدامى. وقد أشار ابن سينا في رسالته إلى ظاهرة قريبة منها عندما تحدّث عن الجيم. وقد عرض اللغويّون القدامى إلى ظواهر صوتيّة ثانية مثل: الكشكشة (إثبات الشين حالة الوقف. وفيها آراء ثنائية)، والششنة (قلب الكاف مطلقاً إلى شين وهي معزّوة إلى اليمن)، والكسكة (الحاق كاف المؤنّث بسين عند الوقف)، والعنعة (إبدال الهمزة عينا)، والفحفة (قلب الحاء عينا أو الهاء عينا)، والعججة (قلب الباء جيماً)، والعجرفيّة (هي كالغمغة وتتعلّق بالنّطق)، والغمغة، والاستطاء (إبدال العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء)، والطمطمانيّة (إبدال لام التعريف ميماً).. (الجندي. 1978: 359.. 409).

⁶ حاولنا في هذا البحث عدم الحياد عن الأهداف العامّة للأطلس التونسيّ..

قسم أول يضمّ وصفا للظاهرة المدروسة ويُنزلها في مسارها من خطّ الظواهر الصوتيّة القريبة منها بالرجوع إلى نماذج ممّا وصلنا من كتابات اللغويين.

وقسم ثانٍ يبحث في الظاهرة باعتماد الدراسات الحديثة المُهتمة بالموضوع المدروس. يُضاف إلى ذلك تقصّي الأمثلة التطبيقية، ومحاولة النّظر في أوجه تطوّرها والبحث في الأسباب التي دفعت إلى ذلك.

وقبل أن نُبشر بحثنا في الظاهرة نقدّم تعريفا لها حتّى لا يلتبس الأمر مع مصطلحات قريبة منها مثل الإدغام أو الإبدال أو القلب الخ..

1- في الازدواج الصوتي:

يُعرّف ديبوا Dubois المزدوجة Affriquée بأنّها حرف/صامت يجمع انحباسا Occlusion واحتكاكا Frication بكيفية دقيقة جدا. ومثال ذلك الحرف الاستهلالي الانجليزي في كلمة (child). وهو ما يقابل تقريبا [tʃ]، ولكنه يُكتب [ç]. أو الحرف الاستهلالي في الكلمة الإيطالية (giorno) [dʒorno]. وفي هذا المثال يكون الانحباس أكثر أهميّة في بداية المزدوجة، والاحتكاك في المرتبة الثانية. والحركتان متزامتان وليستا متلاحقتين، وهي الفكرة التي سادت طويلا.

ومنذ بداية تُطَق المزدوجة تكون أعضاء التّطق في وضعيّة نصف-انحباسيّة تتّجه شيئا فشيئا إلى تقوية خاصيّتها الاحتكاكية. وهو سبب تسمية هذا التّطق باسم نصف-الاحتكاكية إضافة إلى تسميتها بنصف-الانحباسيّة.

وبالنّظر إلى تاريخ الألسن يبدو أنّ الصّوامت المزدوجة في طريقها إلى فقدان خاصيّتها الانحباسيّة والاقتصار على الخاصيّة الاحتكاكية.

وهذا التطوّر الذي نجم عن الانتقال من الفرنسيّة القديمة إلى الفرنسيّة الحديثة هو الذي أعطانا:

« cire » ([tsir] → [sir])

« cher » ([tʃer] → [ʃe])

وهذا الأمر ما يزال في بدايته مع الإيطالية المعاصرة في مثل:

« tu dis » ([diʃi] → [ditʃi]) (أنت تقول)

وهو شكل مخصوص بتأثير لهجات وسط إيطاليا دون أن نجزم إن كانت ستتنتشر أم لا، إذ يمكن أن تحدث في المقابل تطوّرات عكسيّة..

ومن منظور سماعيّ، تتمايز الصّوامت المزدوجة عن الصّوامت الانحباسيّة بخاصيّة

الحدة Caractère strident التي تتناظر مع الصّمت (على الأقلّ في موجات التّواتر Bandes de fréquences المتواجدة تحت نزيز الحبال الصوتيّة Vibrations des cordes vocales) والتي

تُتبع و/أو تُسبق بانتشار Diffusion للطاقة يمتدّ على موجة متواترة واسعة (Dubois et al., 2007: 21, 22).

وقد بدأنا عملنا بإيراد تعريف لسانی. مرّد ذلك أنّ الظاهرة المدروسة لم تحظ بالدقة الكافية للوصف اللسانی في مؤلفات اللغویین العرب القدّامی وإن تناول نحویونا منذ الخلیل بن أحمد الفراهیدی (786م) مسائل التلقظ وإنتاج الحروف وغيرها مما يتعلّق بما یُسمّى بالصوتیّات. وقد كان الخلیل "أول من قدّم ترتیباً یستند إلى مدارج وأحیاز فیزیولوجیّة" للأصوات في نظام العربیّة (الجديدي، 2002: 22). أمّا المصطلحات التي تصف الحروف فقد كانت بدايةً ضبّطها مع سیبویه وأهمّها صفات الهمس والجهر والشدة والرّخاوة..

1.1- في وصف التعلّاق الصوتي:

عرفت الأصوات اهتماماً كبيراً بدراساتها حتّى قبل الخلیل فقد تناول أرسطو في كتابه (فن الشعر) مثلاً قضیّة الحروف فعرف الصوت الهجائي بأنه "صوت مقسوم یدخل بطبیعته في تركيب الصوت المركّب" وقسمه إلى مصوّت (یعني الحركة) ونصف المصوّت (یعني الحرف الرّخو) والصّامات (یعني الحرف الشّدید)⁷. وقد استفاد من ذلك كلّ من علماء اللغة العربیّة وعلماء التّشريح الذين بحثوا في تقریعات الحنجرة واللسان وغيرهما من الأعضاء التي تساهم في حدوث الحروف وتفسّر الظواهر الصوتیّة القارّة والحادثّة، وخیر دلیل على ذلك الدقة العلمیّة الكبرى التي بلغتھا مباحث رسالة الشّیخ الرّئيس ابن سینا في (أسباب حدوث الحروف) حين یصف حرف الجیم مثلاً، إذ یقول في الفصل الرّابع الموسوم بـ"في الأسباب الجزئیّة لحرف من حروف العرب" من رسالته مثلاً: "أمّا الجیم فیحدث من حبس بطرف اللسان تامّ وبتقریب الجزء المقدّم من اللسان من سطح الحنك المختلف الأجزاء في التّواء والانخفاض مع سعة في ذات الیمین والیسار وإعداد رطوبة حتّى إذا أطلق نفذ الهواء في ذلك المضيق نفوذا یصغرّ لضيق المسلك إلاّ أنّه یتشدّب لاستعراضه ویتمّ صغیره خلل الأسنان، وتنفّص من صغیره وتردّه إلى الفرقة الرّطوبة المندفعة فیما بین ذلك متفّعة ثمّ تتفّعا، إلاّ أنّها لا یتمدّد بها التّفّفع إلى بعيد ولا تتسع بل تفوقها في المكان الذي یطلق فيه الحبس" (ص24). وینتقل الشّیخ الرّئيس إلى وصف الشّین فیقول: "وأمّا الشّین فهي حادثّة حيث یحدث الجیم بعینه، ولكن بلا حبس البتّة، فكأنّ الشّین جیم لم یحبس وكأنّ الجیم شین ابتدأت بحبس ثمّ أطلقت" (م.ن).

ویعلّق اللسانی التّونسی الطّیب البکوش على هذا الوصف قائلاً: "إنّ هذا الوصف لا یمكن أن ینطبق إلاّ على الصوت المركّب [دج] باعتبار صفة الجهر التي لولاها لانطبق أيضاً على [تش]،

⁷ انظر تقدیم البکوش ضمن (أسباب حدوث الحروف) ص 8..

وهو أيضا نطق موجود ولكن بقلّة في جهة تدمر وبعض قرى الجبل الشرقي في سوريا بتأثير اللهجات الآرامية" (م.ن:10).

وهذا الحصر الذي ورد في التعليق يؤكد قضيّة مفادها أنّ الحروف في اجتماعها تتعرّض إلى العديد من التّغييرات بما أنّ الحرف الواحد قد يتغيّر نطقه من زمان إلى آخر وهو ما جعل الوصف المذكور - رغم دقته الصّارمة - لا ينطبق إلا على حرف مركّب من صوّتين مثلما أشار إلى ذلك البگوش. وهذا الأمر يؤكّد أنّ الصّوت قابل للتّغيير.

وهذا التّغيير مرده الاختلافات اللهجيّة والتّغييرات الصّوتيّة الحادثة عن الاستعمالات العاميّة أو الدّارجة. وقد عزا جلّ الباحثين انحراف العاميّة عن الفصحى في البلدان العربيّة ومنها تونس إلى أسباب أهمّها قصد التّخفيف في النّطق، وذلك بأن تتطوّر من "الصّعب إلى السّهل، ومن الخشن إلى النّاعم، ومن المعقّد إلى الميسّر، ومن المزخرف إلى البسيط، ولهذا فإنّ الفروق التي تُشاهد بين الفصحى واللهجات العاميّة إنّما تنتج من حاجة النّاس إلى التعبير عن أفكارهم بسهولة وبساطة ووضوح، ومن نزوعهم إلى الاقتصاد في الكلام" (الجندي. 1978: 132، 131)، هذا بالإضافة إلى العوامل التّاريخيّة والاجتماعيّة وغيرها⁸. وخيرُ مثال على ذلك أنّه "بفضل مستعمرات الفينيقيين انتشرت لغتهم في كثير من البلاد الواقعة على سواحل البحر الأبيض وفي كثير من جزره، ونعني بها مدينة قرطاجنة والبلاد المتاخمة لها. ولتمييز اللهجة القرطاجيّة عن اللغة الفينيقيّة الأصليّة اصطاح العلماء على تسميتها "باللهجة البونيّة" Punique (وافي 2000: 36)، وهذه الكلمة مأخوذة من كلمة لاتينيّة معناها "فينيقي" وهكذا كان الرّومان يُسمّون أهل قرطاجنة وجميع من يُنسب إليهم، أمّا المدينة نفسها فاسمها الأصلي بالفينيقيّة "قريات حديشات" أي القرية الحديثة، وحرّف الرّومان هذا الاسم إلى "قرتاجو" ومنها أخذت كلمة قرطاجنة Cartage (م.ن).

وهكذا فإنّ التّغيير في الأصوات أو في الحروف وحتّى في الحركات ظواهر قديمة حديثة، حتّى أنّ ظواهر التّغيير ذاتها لم تعد مقتصرة على ما عهدناه من إدغام وقلب وإبدال وإمالة⁹ الخ.. فقد أوصل التطوّر اللغوي إلى بروز ظاهرة صوتيّة جديدة هي ظاهرة الازدواج الصّوتي التي يورد معجم روبر الصّغير الفرنسي Le Petit Robert أنّها ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر، لذلك لا نجد لها صدّى في الكتب الأصول وحتّى في جلّ الكتابات الحديثة التي قد تُطلق المصطلح على غير ما

⁸ في هذا الإطار يقول ماريوياني مثلا: "إنّ الاتجاه الطبيعي للغة، وبخاصّة في صورتها الدّارجة، أو المتكلمة، هو اتّجاه يُعيدّها عن المركز، فاللغة تميل إلى التّغيير، سواء خلال الزّمان أو عبر المكان، إلى الحدّ الذي لا توقّف تيّاره العوامل الجاذبة نحو المركز.. هذه الخاصيّة العالميّة للغة، هامة لعالم اللغة التّاريخي، حيث إنّها تشكّل الأساس في كلّ تغيير لغوي" (ضمن عبدالنّواب 1997: 10).

⁹ للاطلاع على هذه الظواهر الصّوتيّة يمكن العودة إلى كتاب سيبويه ج IV صص 431..479 والخصائص لابن جني ج II صص 139..143 وشرح المفصل لابن يعيش ج V صص 538.. وانظر حديثا: التّشري، حمزة عبدالله. من مظاهر التّخفيف في اللسان العربي. 1986 ونورالدين، حسن محمّد. الدّليل إلى قواعد اللغة العربيّة. 1996 وانظر بالخصوص: المعجم المفصل في علم الصّرف 1993، الذي يتحدّث عن جلّ التّغييرات الصّوتيّة كالإبدال والإدغام والإسقاط والإسكان والإطباق والإظهار والاعتلال والإعلال والإشمام والإمالة والانحراف والثمائل والحذف والقلب والقلقلة الخ..

وُضع له كأن يحدثنا المستشرق يوهان فك قائلا: "هناك تغيير صوتي [...] يعترضنا كثيرا في اللغة المولدة، وهو يتعلق بالسّين والصاد، ففي العربيّة القديمة نجد بالفعل صيغا مزدوجة¹⁰، مثل: صراط وسراط، وصويق وسويق، وغير ذلك" (العربيّة..1980: 112).

ولا نكاد نعثر -إضافة إلى ما ورد في تقديم الأستاذ البگوش في رسالة ابن سينا- إلا على إشارة صغيرة في مؤلف (مدخل في الصّوتيات ص 69) للأستاذ إبراهيم والتي اكتفى فيها بذكر المصطلح الفرنسي مع ذكر مثالين وردا في تعريف ديوبو Dubois، أو بعض الإشارات في كتاب (التطوّر اللغوي) لعبد التّوّاب.. لذلك سنحاول النّظر في الظاهرة باعتماد التّطبيقات التي انطلقنا فيها أساسا من الاستماع والملاحظة والاستخلاص للّهجة التّونسيّة التي تبرز الظاهرة في مجموعات مخصوصة من النّاطقين بها¹¹.

1.2- من مظاهر التطوّر اللغوي في الدّارجة التّونسيّة:

يحضّر حرف الشّين كثيرا في الدّارجة التّونسيّة على اختلاف المجموعات السّكانيّة بالبلاد سواء كانوا من الشمال أو من الوسط أو من السّاحل أو من الجنوب، وسواء كانوا من "البلديّة" أو من البدو.. ونلاحظ ذلك خاصّة في الصّيغ الاستفهاميّة التي تبتعد فيها اللّهجة التّونسيّة كثيرا عن الصّيغ الاستفهاميّة في الفصحى، فالّتونسيّ عموما يقول مستفهما: "وقتاش؟"، "كيفاش؟"، "علاش؟"، "تمّاش؟" الخ.. وهو ما يقابل في الفصحى على التّوالي بـ: متى؟، كيف؟، لماذا؟، هل يوجد؟ الخ.. ومن الخصائص الصّرفيّة للدّارجة التّونسيّة، البدء بالسّاكن بدل المتحرك في الأفعال مثل: "ضرب" و"كتب" و"قرب" بسكون الضاد والكاف والقاف، ويبدو ذلك في الأسماء أيضا مثل: «حبل» و«قلم» بتسكين الحاء والقاف الخ.. وهذه الخاصيّة الصّرفيّة تكاد تكون عامّة في لهجات المغرب العربيّ كلها خلافا للّهجات المشرقيّة.

وأهل اللّهجة التّونسيّة يُبدلون بعض الحروف بأخرى كإبدال السّين شيئا، والجيم زايًا، والسّين صادًا، والتّاء طاء. فهم في العاميّة يقولون: "سجرة" لشجرة، و"العزوزة" للعجوزة، و"موريطني" لموريطني¹².

وهذه الطّواهر قديمة حديثة في اللّهجات وهي تدخل في باب إبدال حرف مكان آخر طلبا لليسر في النّطق مع المحافظة على التقارب الصّفاتي بين الأحرف التي يبدّل بعضها البعض الآخر فنحافظ

¹⁰ حافظنا على الترجمة الأصليّة مع احترازنا من استعمال المصطلح "صيغا" لارتباطه بعلم الصّرف. ونفضّل في السياق المذكور استعمال مصطلح "أصواتا ثنائيّة".

¹¹ لاحظنا بعض الاختلافات في نطق كلمات بعينها بين جهات البلاد التّونسيّة إلا أنّنا حاولنا النّظر في الظاهرة بشكل عام لأنّ حيّز البحث لا يسمح بالوقوف عند هذه الاختلافات..

¹² انظر <http://ar.wikipedia.org/wiki>

على الأجراس الصوتية التي انبنى عليها اللفظ في أصل تكوُّنه وإن كانت هذه العملية تتم في أغلب حالاتها بصورة غير مقننة..

ومن الظواهر الصوتية اللافتة للانتباه في الدارجة التونسية ما نستخدمه على تسميته بظاهرة "التشتشة"، وهي ظاهرة تقوم على اجتماع صوتين في حرف واحد وهما الـ [تش] التين تُعوّضان حرف التاء¹³، وهي ظاهرة تحضر في جهتين متباعدتين في الفضاء الجغرافي التونسي، الأولى جهة الجريد التونسي وخاصةً منه مدينة نفطة، والثانية جهة الوطن القبلي وخاصةً منه مدينتا دار شعبان الفهري ونابل ودرجة أقلّ مدينة بني خلاد.

2- وصف ظاهرة "التشتشة":

تحضر ظاهرة التشتشة في أغلب مواضع ورود حرف التاء في الكلمة سواءً كانت اسماً أم فعلاً. وما لاحظناه من خلال الاختبارات التي أجريناها على العديد من الكلمات صُوبة ضبط قوانين صارمة تحصر مواضع شدة وقع¹⁴ الحرف المزدوج خاصةً وأنّ درجات الوقع لا تتفق بين نُطق أهل الجريد ونُطق أهالي الوطن القبلي داخل نفس الكلمات، إلا أننا حاولنا التقريب بين النُطقين بغرض طرح تساؤلات تحيط بعموم الظاهرة كالتساؤل عن علاقة هذا الصوت المزدوج بالنّبر¹⁵ بحسب موقعه من الكلمة، والتساؤل عن دور موقعه من الكلمة في إمكانية إثباته مزدوجاً أو تخفيفه، وهو ما أشرنا إليه سابقاً تحت باب الوقع، إضافة إلى محاولة إيجاد جوامع مشتركة بينهما تُعيننا على وضع أنماطية Typologie تضبط عموم تواردات هذه الظاهرة في الدارجة التونسية بشكل عام¹⁶.

2. 1. المُسوَّغات المؤلّة للظاهرة:

قبل أن نعالج قضية التشتشة، وجب النظر في الخاصيات الصوتية لكلا الحرفين، أي للتاء والشين حتّى نستطيع أن نبحث في المسوّغات التي أدّت إلى هذا التطوّر في نطق حرف يحضر في الكثير من كلامنا وخاصةً في الأفعال، وذلك بالنّظر في سماتها ومخارجها¹⁷، إذ "معرفة المخرج بمنزلة الوزن والمقدار، ومعرفة الصّفة بمنزلة المحكّ والمعيار"¹⁸، لذلك سنحاول اعتمادهما للوصول إلى استكناه الظاهرة ومحاولة ضبطها علمياً.

¹³ اقتصرنا على هذا النموذج رغم وجود مثال آخر، وهو الجيم التي تُنطق في العديد من مواضع ورودها كالآتي: [دج] وهي ظاهرة صوتية لا يرتقي استعمالها في الدارجة التونسية إلى مستوى شيوخ ظاهرة التشتشة. ولعلّها تحضر بشكل كبير في اللهجة الجزائرية، وبشكل ما في اللهجة المغربية..

¹⁴ اعتمدنا مفهوم "الوقع" هنا ونقصد من وراءه إلى معرفة درجة شدة الحرف المزدوج داخل الكلمة أو ضَعْفه بما أنّه يتعلّق بدرجة الضّغط عليه أثناء نُطقه.. (انظر شرح المفصل: 523:V).

¹⁵ يهتم النّبر Accentuation بدراسة البنية النغمية للكلمة.

¹⁶ لا ندّعي الوصول إلى نتائج نهائية من خلال هذا البحث المبدئي. وتبقى العديد من التساؤلات في حاجة إلى مزيد الدراسة مثل: البحث في العلاقة بين الأصوات المزدوجة والنّبر انطلاقاً من مواضع الأولى داخل الكلمة.. والإجابة عن أسئلة من قبيل: هل يمكن اعتبار الأصوات المزدوجة صوتاً واحداً أو صوتين أو ثلاثة صواتم؟..

¹⁷ "المخرج هو المقطع الذي ينتهي الصوت عنده" (انظر شرح المفصل: 516:V).

¹⁸ الشاهد في أصله مأخوذ من (نهاية القول المفيد في علم التجويد: 32) وهو مُضَمَّن في: الجندي (1978: 409).

• الصفات النطقية للتاء:

يُصنّف ابن سينا في الفصل الثاني من رسالته¹⁹ الحروفَ إلى واحدة مُفردة وأخرى مُركبة. والمُفردة ومنها التاء، تحدّث عن "حبسات تامّة للصّوت -أو للهواء الفاعل للصّوت- تتبّعها إطلاقاتٌ دفعةً [..] وهذه المفردة تشترك في أنّ وجودها وحُدوثها في الآن الفاصل بين زمان الحبس و زمان الإطلاق، وذلك أنّ زمان الحبس التام لا يُمكن أن يُحسّ فيه بصوت حادث عن الهواء وهو مُستكنّ بالحبس، و زمان الإطلاق لا يُحسّ فيه بشيء من هذه الحروف²⁰ لأنّها لا تمتدّ البتّة²¹" (أسباب حدوث الحروف: 17). ثمّ يحدّثنا عن أسباب حدوث التاء فيذهب إلى ما معناه أنّها تحدث عن انطباق سطح اللسان مع سطح الحنك والمنخر، وبينهما رطوبة، فإذا انقلع عنه وانضغط الهواء الكثير سُمعت التاء²² (م.ن: 25 بتصرّف).

وبالنظر إلى خصائص التاء بما هي من الحروف المُفردة، وبالنظر إلى أسباب حدوثها نلاحظ بجلاء حِدّة الخصائص التي تُميّزُها. وقد أجمع اللّغويّون على أنّ صفات التاء هي: الشدّة والهمس والانفتاح²³ (سيبويه. IV: 434، 436). وهذه الصفات إضافة إلى مخرج التاء يجعلان منها نُقْطِيّة النطق بمعنى أنّه لا يمكن إطالة نطقها وذلك لصدورها عن وضع طرف اللسان على الأسنان العلّيا، وهو ما يُحقّق الانغلاق الكلّي ويجعل من التاء شديدةً.

• الصفات النطقية للشّين:

الشّين، حرفٌ مهموس ورخو ومنفتح (م.ن)، وهي تخرج من وسط اللسان وما يحاذيه من الحنك الأعلى، وهي تسمّى حرفاً شجْريّاً²⁴ لخروجها من شجر الفم، أي مُنفَتَحَة. وقد علّل ابن يعيش دخول الشين على غيرها من الصّوامت -وإن كان حديثه في باب الإدغام²⁵- بأنّ "الشّين فضل استطالة في النفس²⁶" (شرح المفصل. V: 538).

وبالنظر إلى صفات كلّ من التاء والشّين نلاحظ التقاءهما في صفتيّ الهمس والانفتاح واختلافهما في الرخاوة والشدّة. وهذه الصّفة الأخيرة هي التي بسببها أدخل أهالي الجريد والوطن القبلي الشّين على التاء أو زجّوها بها، لأنّه بإدخال الشّين على التاء يُصبح الانغلاق غير تامّ، فيسمح ذلك بمرور

¹⁹ (في سبب حدوث الحروف).

²⁰ الحروف المفردة هي: الباء، والتاء، والجيم، والدال، والضاد، والطاء، والقاف، والكاف، واللام، والميم، والنون. (الرسالة: 17).

²¹ أمّا الحروف المزدوجة "فإنّها تمتدّ زماناً ما وتنفى مع زمان الإطلاق التامّ، وإنّما تمتدّ في الزّمان الذي لا يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق" (م.ن: 18).

²² مخرَج التاء هو بتعبير أبسط: " طرف اللسان مع أصل الثنيّتين العلبيين، ويخرج منه الطاء فالدال المهملتان، فالتاء المثناة الفوقية، وتسمى هذه الأحرف نطعية لخروجها من نطق الفم، أي: جِلْدَة غارّه". (التجاني. المختصر..).

²³ الانفتاح لغة: الافتراق.

واصطلاحاً: تجافي كل من طائفتي اللسان، والحنك الأعلى عند النطق بالحرف حتّى يخرج الريح من بينهما (التجاني. المختصر..).

²⁴ الحروف الشجرية هي الشّين والجيم والياء.

²⁵ يذهب ابن يعيش إلى أنّه لا يُمكن إدغام الشّين إلا مع شين مثلهما، إلا أنّنا استعنا بالشاهد للحديث عن فضل هذا الحرف.

²⁶ النفس لغة: الانتشار

واصطلاحاً: انتشار الريح في الفم عند النطق بالشّين، والنفس صفة للشّين وحدها عند أكثر العلماء ومنهم ابن الجزري. وقيل: إنّ في الفاء والتاء والضاد والصاد والسين والراء نقشاً كذلك، والراء الأول، لأن انتشار الريح عند النطق بالشّين انتشار كامل، ولذا اتفق على نقشه بخلاف الحروف المذكورة فإن انتشار الريح عند النطق بها قليل، ولذا لم يصفها أكثر العلماء بالنفس (التجاني. المختصر..).

الهواء بشكل مضطرب ويُنتج الصوت الاحتكاكي فيكون الحرف المُردّج بذلك رخوا، أو بين الشدة والرخاوة إذ أنّ الحروف التي بين الشدة والرخاوة "شديدة في الأصل، وإنما يجري النَّفس معها لاستعانتها بصوت ما جاور من الرّخوة" (شرح المفصل. 524:V). وقد ذكر ابن يعيش أنّ النَّاء، وهي من حروف طرف اللسان، يمكن أن تُدغم مع الشّين رغم أنّهما ليسا من مخرج واحد إلا أنّهما يتخالطان لأنّ الشّين استطالت بسبب ما فيها من التّفشّي، فالتحقت بحروف طرف اللسان²⁷. وهذه المخالطة الحاصلة بين الحرفين والتي غيّرت مخرج الشّين ليصبح طرف اللسان، وغيّرت من حدة الانحباس الذي ينجم عن نُطق النَّاء فأصابت مخرجها بالرخاوة بأن خلقت ممراً في اللسان بعد أن كان مطلوقاً وهو ما سمح للهواء بالمرور بيُسْر يسمح للنَّاء بالتّفشي مع الشّين والخروج بالنَّاء من نطق الغار الأعلى والاقتراب من شجر الفم أي منفثحه. وبذلك يمثل مخرجاً للصوتين موضوعي البحث -إضافة إلى التقائهما في خصائص مشتركة- عاملي تقريب أساسيين بينهما، وهو ما يسوّغ استعانة الواحد منهما بالآخر لتيسير النطق وتليين مواضع الشدة. وبذلك كان الغرض من التطوّر الطارئ على النَّاء تخفيف فكّ الانحباس بين الأسنان والانفراج عند نُطق النَّاء. وهذه الظاهرة الصوتية، أي اجتماع الصوتين [تش] [tʃ] يحضر في اللغة الانجليزية²⁸ صوتاً²⁹ واحداً وفي الفرنسية صوتين وفي اللغة العربية وفي الدّارجة التونسية من غير الجهات المعنية بالبحث صوتين مستقلين، أمّا بالنسبة إلى جهات البحث فهي تحضر مرّة صوتين لاستقلال كلّ من الشّين والنَّاء بعضهما عن بعض، ومرّة ثانية ضمن صوت واحد مزدوج بالنسبة إلى نُطق النَّاء³⁰ وإن كان ذلك بدرجات..

2.2. في الافتراقات الطّبقية داخل الظاهرة (نحو تنميط للظاهرة):

سنحاول من خلال الاشتغال على العديد من الأمثلة أو الكلمات التي تحضر فيها النَّاء، النّظر في كميّات نُطقها مزدوجة مع الشّين، ودرجات ذلك بالاعتماد على موضعها داخل الكلمة، إضافة إلى حركتها والحركات المحيطة بها، وهي محاولة تقريبية لا تدّعي إنتاج قوانين دقيقة تتعلّق بالظاهرة.

2.2.1. دور موضع النَّاء في درجة وقّع التّشتتة:

يدلّ مفهوم الازدواج على ظاهرة تعاملية تقوم على التقريب بين صوتي النَّاء والشّين. ويختلف تواتر Fréquence هذين الصوتين الذّين يمثلان صوتاً واحداً حسب موقعه من الكلمة. وبانطلاقنا

²⁷ انظر شرح المفصل المفصل. 530:V.

²⁸ انظر تعريف ديبيو أول البحث.

²⁹ الصوتية Phonologie هي علم يهتم بوظائف الأصوات.

³⁰ يُردّد سكان الوطن القبلي أنّ دخول هذه الظاهرة الصوتية على كلامهم متأها دخول اليهود القادمين من جربة إلى المنطقة واستقرارهم بها، وهم الذين غرّفوا باستعمالهم المُكثّف للشّين، حتّى أنّهم يقولون باللسان التونسي: "عالشلامه شدي" الخ.. هذا بالنسبة إلى حضور التّشتتة في لسان جماعات الوطن القبلي، أمّا بالنسبة إلى جماعات الجريد، فيُرجّح أن تأتي الظاهرة قد يعود إلى هجرة جماعات من في جهة تدمر وبعض قرى الجبل الشرقي في سوريا المتأثرة باللهجات الأرامية نحو هذه المنطقة من البلاد التونسية، ويبقى إثبات هذه الفرضية من مهامّ علماء الاجتماع التاريخيين..

من جملة من الأمثلة التي يحضر فيها الصّوت مرّة أوّل الكلمة، وثانية وسطها، وأخرى آخرها، سنحاول النّظر في درجات وقع التّشنّثيّة قوّة/شدّة وضعفاً:

أوّل الكلمة: ثمر، تلفزة، تمساح، تونس..

وسط الكلمة: مفاتح، مقرّتك، مكائب، متنبّر..

آخر الكلمة: مزايا، منعوت، مشيت، حوت..

وبالنّظر في هذه الأمثلة، نلاحظ أنّ وقع الصّوت المزدوج يشتدّ عندما يكون أوّل الكلمة وذلك راجع إلى صعوبة الابتداء بالتاء للصفات التي تتميز بها والتي ذكرناها سابقاً، لذلك كانت حاجة المتلفظ إلى الشين حاجة قويّة وهو ما أخرج إلينا وقعا شديداً وإن اختلفت درجات ذلك من مثال إلى آخر من الأمثلة المذكورة.

وبخصوص درجة وقع الصّوت المزدوج في الأمثلة الأخيرة أي التي ورد فيها الصّوت آخر الكلمة، نلاحظ أنّ درجات الوقع تُصبح ضعيفة لانتهاء نُطق الكلمة عنده..

أمّا بالنسبة إلى ورود الصّوت وسط الكلمة، فإنّ درجة وقعه تصبح بينيّة، أي بين الشدّة والضعف وذلك لانطلاق الهواء ويُسرّ مجراه عند الوصول إلى المقطع الذي يحتوي على الصّوت المزدوج رغم أنّ مقطعه يمثل في العديد من الأمثلة موضع النّبر.

2. 2. 2. دور علاقات الجوار في وقّع التّشنّثيّة:

نقصد بعلاقات الجوار دور اللّواحق والسّوابق التي تحيط بحرف التّاء في شدّة وقع نُطق الصّوت المزدوج أو ضعفه. وأوّل ما يُلاحظ في هذا الإطار تفاعل الصوت المزدوج مع الحركات الطويلة أو حروف العلة بدرجة أقرب إلى القوّة مقارنةً ببقيّة الحروف، وهو ما قد يووّل باتّصال تفتّشي الشّين مع انفراج الشفتين عند نُطق الحركات الطويلة إن كانت هذه الأخيرة قبل التّاء، وإن كانت بعد التّاء يسرّ تفتّشي الصّوت المزدوج بزيادة انسياب الهواء، ومثال ذلك:

السابق: حرف علة: مفاتح، أخوات، ميث..

اللاحق: حرف علة: أختو، أختي، خنار..

أمّا إن سبق الصّوت المزدوج أو لحق بحرف شديد³¹ فإنّ وقع التّشنّثيّة يشتدّ لتخفيف درجات الشدّة التي تسم هذه الحروف، والأمر مُنعكس مع الحروف الرّخوة³² للأسباب التي ذكرناها مع الحركات الطويلة، أمثلة ذلك:

السابق: حرف شديد: مرّجّني، جدّتي..

³¹ الشدّة لغة: القوّة

واصطلاحاً: انقباض جري الصوت عند النطق بالحرف لكمال قوّة الاعتماد على مخرجه، وحروفها ثمانية مجموعة في قولك: "أجد قط بكت" (الثجاني، المختصر..).

³² الرّخوة لغة: اللين.

واصطلاحاً: جريان الصوت عند النطق بالحرف، وحروفها ما عدا حروف الشدّة، وما عدا الحروف البينية أي: التي بين الشدّة والرخاوة، وهي حروف التوسط الخمسة التي يجمعها قولك: "لن عمر" (الثجاني، المختصر..).

اللاحق: حرف شديد: تَجْرَحُ، ثَدَاوي..

السابق: حرف رخو: يُحْتَرَفُ، خَتَمٌ..

اللاحق: حرف رخو: تَحْرَمُ، تَزْرَبُ..

والأمر يتمثل مع الحروف المهموسة³³ والحروف المجهورة³⁴ أمثلة ذلك:

السابق: حرف مهموس: فُتَيْتَة، شَخْتُورَة، سَكْتٌ..

اللاحق: حرف مهموس: تَكْرُورِي، مُسَنَّكٌ..

السابق: حرف مجهور: مِتَعَلَمٌ، وَقْتَانَش..

اللاحق: حرف مجهور: مِتَعَلَمٌ، ثَبِيعٌ، مِثْرَبِي..

...

ومن خلال كلّ هذه الأمثلة نلاحظ أنّ درجات وَقْع التّاء المزدوجة بشكل عامّ، تقوى/تشتدّ كلما سُبقت بحركة طويلة أو ألحقت بها، وهو ما يُدكرنا بظاهرة الكشكشة في بعض اللهجات القديمة (ربيعة ومُضر) والتي تتأثر فيها الكاف بالكسرة التي تأتي بعدها، فتتحوّل إلى صوت مزدوج من مقدّمة الفم، ليتوافق مع الكسرة وهو صوت: (ثش)³⁵. كما يقوى الوقع كلما تكررت التّاء في حالات التّضعيف (حوثي، مرّتب)، وذلك قصد التيسير والخلوص من الشدّة التي تأبأها الألسنة العاميّة وتنفر منها. وفي المقابل فإنّ وقع الازدواج الصّوتي يضعف إلى حدّ الانعدام في الكثير من الأمثلة التي تُسبق فيها التّاء بشين (ثتنا)، أو تُلحق بها (ثشوف)..

وتبقى هذه التّأويلات في حاجة إلى مزيد التّدقيق وخاصة مع الأمثلة التي تلتقي فيها عوامل متناقضة من التي حاولنا تطويعها للوصول إلى هذه التّأويلات..

خاتمة البحث

بعد أن وصفنا ظاهرة الازدواج الصّوتي من خلال نموذج الدّارجة التّونسيّة، وبعد أن حاولنا تقديم صياغة أولى للـ"قوانين الصّوتيّة" المتحكّمة في ما اصطلحنا على تسميته بـ"النّشكشة"، يمكن أن نخلّص إلى نتائج عامّة مفادها أنّ هذا التطوّر الصوتي الذي حصل في نطق التّاء في بعض المناطق التّونسيّة ليس ظاهرة محلّية بل إنّ العديد من اللغات مشتركة فيه، فبالإضافة إلى حضوره في اللغة الانجليزيّة وإن كان ذلك بصورة عكسيّة حيث دخلت التّاء على الشّين، فإننا نجد أنّ الألمانية كذلك قد "أبدلت الـ(z) (ثس) من الـ(t) (ت) القديمة الواقعة أوّل الكلمة" (عبد التّوّاب. 1997: 19). وهذا

³³ الهمس لغة: الخفاء.

واصطلاحاً: جريان النفس عند النطق بالحرف وحروفه عشرة يجمعها: "فحثه شخص سكت". (النجاني. المختصر..).

³⁴ الجهر، لغة: الإعلان.

واصطلاحاً: انحباس جري النفس عند النطق بالحرف لقوة الاعتماد على مخرجه، وحروفه ما عدا أحرف الهمس السابقة، وهي ثمانية عشر حرفاً. (النجاني. المختصر..).

³⁵ انظر: عبد التّوّاب. 1997: 52.

الازدواج الصوتي يمثل باعتماد تقنية الاستبدال Commutation صوتما واحدا في نُطق الجهات المعنيّة بالدّرس وظيفته تعاملّيّة Variante combinatoire .. ومن جهة ثانية، يمكن أن نخرُج بنتائج عامّة تتعلق بالظاهرة ³⁶ وهي أنّها عمليّة جماعيّة تلقائيّة. والثابت أنّها قد سارت ببطء وتدرّج، وأنّها غير محدودة بمكان معيّن. وقد أكّدت نتائج الاختبارات المُجرّاة على العديد من النّماذج أنّ ظاهرة التّشتّش ظاهرة مُطرّدة في جُلّ الكلمات التي يحضّر فيها هذا الصّامت (التاء) وإن كان ذلك بدرجات وقع متفاوتة، وذلك عند كلّ سكان نفطة وجُلّ سكان الوطن القبلي، وقد أكّد فنّدرائيس أنّه "لما كان التّغيير لا ينحصر في كلمة منعزلة، بل في آلة النّطق نفسها، فإنّ جميع الكلمات التي تتبع آليّة واحدة في النّطق، تتغيّر بنفس الصّورة" (ضمن عبد التّواب. 1997: 22، 23).

وتبقى الشّين بما هي الصّامت الوحيد الذي من خاصيّاته التّفشّي حلا صوتيّاً تركن إليه العديد من الألسن لتجنّب صفة الشدّة التي هي أصلٌ في العديد من الصّوامت مثل إبدال الكثير من سكان الخليج العربي الكاف شيئا كقولهم (لبيش اللهم لبيش، عوضا عن: لبيك اللهم لبيك)، أو إبدال المصريين الجيم شيئا كقولهم (وشّ، عوضا عن وجه)، أو كإبدال الجيم شيئا عند سكان المغرب العربي عندما يقولون (شخّ، عوضا عن جخّ) الخ..

وبهذا، يُمكن القول إنّ ظاهرة التّشتّش لا تخرُج عن السّمات العامّة التي تُميّز كلّ الألسنة البشريّة وهي من مظاهر التطوّر اللغوي الذي يؤكّد استجابة لسان ما إلى مُستلزمات التطوّر في شتى المجالات، وهي التي تجعل من لسان ما لسانا حيّا مثلما أشرنا إلى ذلك منذ البداية. ويبقى هذا البحث في عمومهِ مجرّد منطلق لتتبع الظاهرة في عدد أكبر من التّسجيلات من أجل دراسة منتظمة تساهم في وصف مظاهر التطوّر اللغوي الحاصلة من خلال الدّارجة التّونسيّة.

³⁶ هذه الخصائص وغيرها متعلّقة بظاهرة التطوّر الصوتي في شكلها العام. (انظر في هذا الإطار: عبد التّواب. 1997: 20، 23).

المراجع المُعتمدة

● بالعربية:

- ابراهيم، عبدالفتاح. مدخل في الصوتيات. دار الجنوب للنشر. تونس (د.ت).
- الأسمر، راجي (إعداد). المعجم المفصل في علم الصّرف (مراجعة د. إميل بديع يعقوب) دار الكتب العلميّة بيروت لبنان ط1. 1993.
- البكوش، الطيّب وصالح الماجري. "إنجاز الأطلس اللساني التونسي: تأصيلا لهويّة وعامل تنمية" (صص293..296). ضمن أعمال الندوة: واقع اللغات ومستقبلها في تونس. المعهد العالي للغات.
- مركز النّشر الجامعي، تونس. 2000.
- النّجاني، مولانا مهّد الطيّب عثمان أبشّر. (جمع وترتيب). المختصر المفيد في علم التّجويد (نسخة الكترونيّة، دون ترقيم).
- الجديدي، عبدالقادر. حدود التّفكير الصّوتي اللغوي في التراث العربي الاسلامي . الجزء الأوّل: اللغويّون. الشركة التّونسيّة للنّشر وتنمية فنون الرّسم. تونس2002.
- الجندي، أحمد علم الدّين. اللهجات العربيّة في التراث. القسم الأوّل، في النّظامين: الصّوتي والصّرفي. الدّار العربيّة للكتاب ليبيا-تونس 1978.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. ط4: 1999.
- سريوييه أبو بشر. الكتاب. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. دار الجيل بيروت ط1(د.ت).
- ابن سينا، أبو علي الحسين. أسباب حدوث الحروف. تحقيق محب الدين الخطيب. تقديم الطيب البكوش. المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة". قرطاج 2002.
- عبد التّوّاب، رمضان. التطوّر اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه. نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط3. مصر 1997.
- فك، يوهان. العربيّة، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب . (ترجمة وتقديم وتعليق وفهرسة د. رمضان عبد التّوّاب). مكتبة الخانجي ط2. مصر 2003.
- وافي، علي عبد الواحد. فقه اللغة. نهضة مصر للطباعة والنّشر والتّوزيع. ط2. مصر 2000.
- النّشّرتي، حمزة عبدالله. من مظاهر التّخفيف في اللسان العربي. 1986. (نسخة الكترونيّة pdf).
- نورالدين، حسن محمّد. الدّليل إلى قواعد اللغة العربيّة. دار العلوم العربيّة للطباعة والنّشر بيروت ط1 1996.
- ابن يعيش، موفق الدّين. شرح المفصّل. قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه د. إميل بديع يعقوب. دار الكتب العلميّة بيروت لبنان ط1: 2001.

● بالفرنسيّة:

Dubois Jean et all...*Grand dictionnaire Linguistique et Sciences du langage*.
LAROUSSE 2007.

Le Petit Robert de la langue française (copie électronique).

242008 أغسطس <http://ar.wikipedia.org/wiki>